﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتميمُ الإخبار عن الجزاء بذكر النَّقيضِ بعدَ النَّقيض

بعد أنْ ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ خبرَ أحدِ الخصمينِ المتضمِّن بيان حالِه وجزائه في الآخرة، وهو الخصمُ الكافر الَّذي أبى الانقياد لخالقِه والسُّجود له، انتقل النظمُ الكريم ليذكرَ لنا خبرَ قسيمِه الآخر، وهو فريقُ المؤمنين الّذين انصاعوا لأوامر الله، وسارعوا إلى السُّجود له والانقياد له خاضعينَ، سواءٌ في معناه الشرعيِّ التكليفيِّ بوضع الجباه على الأرض في الصَّلاة المعهودة، أوْ معناه الأوسع وهو كاملُ الانقياد لله قلبًا وقالبًا، ظاهرًا وباطنًا، حسًّا ومعنًى، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾: أصلُ (حلو) يدلُّ على تحسينِ الشَّيء، وهو الحُلي، ومنه: حُلي المَرْأة، وهو جَمْعُ حَلْي، كَما يُقالُ: ثَدْيٌ وثُدي، وظَبْيٌ وظُبي، وحَلَّيْتُ المَرْأةَ، وهَذِهِ حِلْيَةُ الشَّيْءِ أيْ صِفَتُهُ، ويُقالُ حِلْيَةُ السَّيْفِ، ولا يُقالُ: حُلي السَّيْفِ[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ أي: يُلْبَسونَ الحُلي، "والتحليةُ وضعُ الحُلي على أعضاءِ الجسم"؛[2] للزّينة والبهاء.

2) ﴿أَسَاوِرَ﴾: أصلُ (سور) يَدُلُّ عَلَى عُلو وارْتِفاعٍ، ومِنْ ذَلِكَ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلو)، والراغب، المفردات: (حلى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.

سارَ يَسورُ إذا غَضِبَ وثارَ، وإنَّ لِغَضَبِهِ لَسَوْرَةً، والسّورُ: جَمْعُ سورَةٍ، وهي كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنَ البِناءِ[1]، والسّورة المنزلةُ الرفيعةُ، قال الشاعر:

ألَمْ ترَ أنّ اللّه أعطاكَ سورَةً *** ترى كلَّ ملكٍ دونَها يَتذبذبُ

وسورُ المدينة: حائطُها المشتملُ عليها، وسورَةُ القرآن تشبيهًا بها لكونها محاطًا بها إحاطةَ السّور بالمدينة، أوْ لكونها منزلةً منازلَ القمر، وسِوارُ المرأة معرّبٌ، وأصله دستوار، وكيفما كان فقد استعملتْهُ العرب، واشتقّ منه: سَوَّرْتُ الجارية، وجارية مُسَوَّرَةٌ ومخلخلةٌ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: 53]، وقال: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21][2]، والمراد هنا: أساورُ الذّهبِ الّتي تُلبَسُ في الذّراع[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ألــوانُ النّعيم لصاحبِ الإيمان السَّليم والعملِ القويم

أما وقد ذكر فيما سبق مصيرَ الكافرين، فها قد حانَ بيانُ مصيرِ المؤمنين الّذين آمنوا باللّه إيمانًا صادقًا، وانقادوا لأوامره فعملوا الأعمال الصّالحة، واجتنبوا نواهيَه فابتعدوا عن كلِّ ما يُغضبُ ربَّهم، فإنَّ جزاءهم أنَّ اللّه تعالى يُدخلهم جناتٍ تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهارُ العذْبة، يُنعَّمونَ فيها صنوفَ النَّعيم، منها يَشربون، وبها يَتمتّعون، وتُزيّنُهم الملائكة بأساورِ الذّهب وباللؤلؤ، كأنْ يكونَ لهم من اللؤلؤ قلائدُ، أو تيجانٌ، ونحو هذا، ويضافُ إلى هذا أنَّ لباسهم المعتادَ من حرير، حيث كان الذهبُ والحريرُ محرَّمينِ عليهم في الدنيا[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سور).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سور).
(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 68.
(4) مجموعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 491، وحجازي، التفسير الواضح: 2/ 577، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1011.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التقابل بين الفريقين:

التقابلُ بينَ حال كلٍّ من الفريقين في المكان واللِّباس وخطابِ الكرامة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانُ جزاء المؤمنين إثرَ بيان جزاء الكافرين، الَّذي تولّتْه الآياتُ السّابقة، وقد جاء التقابلُ عجيبًا بينَ الحالين؛ فقابلَ بينَ إدخال المؤمنين الجنة في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وبينَ إعادة الكافرين في النار في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، وبينَ تحليةِ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ وعذابِ الكافرين في قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾، وبينَ لباس المؤمنين في قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ولباس الكافرين في قولِه: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾، وبينَ سماعِ القول الطيِّب لأهل الجنة في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وسماع القول المؤلِم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ لأهل النّار[1].

علَّة فصل الآية عن السّابق:

الآيـة مستأنفةٌ بيانيًّا أو ابتدائيًّا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إمّا أن يكون استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤال مقدَّر[2] عن ماهيّة جزاء المؤمنين وكيفيّته، وهم الخصم الثاني، بعد أن بيَّنت الآيات السّابقة جزاءَ الَّذين كفروا وهم الخصمُ الأوّل المجادل في الربّ تعالى المنكر لربوبيّته، وعلى هذا فإنَّ بين الآية وما قبلها (شبه كمال اتصال)، وإمّا أن يكون مستأنفًا استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيان جزاء المؤمنين الَّذي استحقّوه بما قدّموه من إيمانٍ صادق وانقيادٍ لربِّهم الخالق.

غرضُ العدول عن مقتضى الظّاهر بالفصل:

استرعاء الأسماع وتنبيه الأذهان بتتويج أهل الإيمان

كان مقتضى الظّاهرِ أنْ يكون هذا الكلام معطوفًا بـ(الواو) على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 31.

جملة: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾؛ لأنه قسيمُ تلك الجملة في تفصيل الإجمال، الَّذي تحقّق في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ بأن يقال: (والّذين آمنوا وعملوا الصالحات يُدخِلُهم الله جنّاتٍ)، فعدلَ عن ذلك الأسلوبِ إلى هذا النَّظم الرائع المبين؛ لاسترعاء الأسماعِ إلى هذا الكلام، إذ جاءَ مُبتدَأً به مُستقِلًا عما سبقه، مُفتتحًا بحرف التأكيد، ومتوَّجًا باسم الجلالة[1].

غرضُ العدولِ بتصدير الجملة بلفظ الجلالة والتوكيد:

خولف بين هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في أسلوب التَّوكيد مع جملة: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ﴾ حيث خلتِ الأولى من تصديرِها بلفظ الجلالةِ، وبحرفِ التأكيد ﴿إِنَّ﴾، وذلك لتعظيم هذا الجزاء، والإيذانِ بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، والإظهار لمزيد العناية والاهتمام بأمرِ المؤمنين، والدلالةِ على تحقُّقِ مضمون الكلام[2].

الاهتمام بالمؤمنين وتعظيم جزائهم والتنويهُ بهم

نكتةُ تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ:

بتأمُّل السّياق يُلحَظ أنَّ السرَّ البلاغيَّ في تقديم المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على الخبر الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو إفادةُ القصر والاختصاص، فالله تعالى وحدَه هو الَّذي يُجازي المؤمنينَ بإيمانهم والصّادقين بصدقهم، ولا صادَّ له يصدُّه عن عطائه وفضله، كما أنَّ فيه أيضًا تقويةً للحكم الَّذي تضمَّنه الخبرُ الفعليُّ، وهو إدخال المؤمنين الجنّات المنعوتةِ بالنعوت المذكورة، ليتنعّموا فيها بكلِّ وسائل النعيم ومظاهره؛ لأنَّه إذا كان الله تعالى هو الَّذي يَجزيهم هذا الجزاء، فمِن لوازمه أن يكونَ جزاءً لا تبلغُ العقولُ إدراكَ عظمته وقدرِه، مع ما فيه من التَّشويق لمعرفةِ الخبر فيما يخصُّ شأنَ جزاءِ المؤمنين.

الجليلُ سبحانه هو وحدَه من بيدِه إدخالُ المؤمنين الجنَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 31.

بلاغة التَّعريض في اختيار لفظ ﴿يُدۡخِلُ﴾:

دخـولُ المؤمنين الجنَّة تعريضٌ بحرمة ذلك على غيرهم

من التجلياتِ الظّاهرة في إيثار لفظ ﴿يُدۡخِلُ﴾ في جزاء المؤمنين، واختياره التكريم للمؤمنين والتعريض بالكافرين، فإنّه لمّا قال هناك: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ قال هنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ﴾؛ لبيان الفرق بين الفريقين، وإبراز مدى الهوَّة بينهما، والإدخالُ يُشعر بالإكرام كما يُدخلُ صاحبُ الدار ضيفَه، بخلاف الإعادةِ فيها بعد إرادة الهروب منها فإنَّها تشعرُ بالإهانة والسُّخرية.

بلاغةُ التعبير بالموصول:

التَّنبيهُ على استحقاق المؤمنين ثوابهم العظيم

عبَّر عن المؤمنين باسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون اسم الفاعل (المؤمنين)، تنبيهًا على السَّبب الَّذي من أجلِه استحقّوا ما نالوه من ثواب الله فضلًا ورحمةً، وهو ما أفصحَتْ عنه جملةُ صلةِ الموصول، وهو كونهم: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولو قال: (المؤمنين) وهو صفةٌ مشبّهةٌ لا يراد به معنى الوصف الاشتقاقي لكان مدحًا بثبوت اسمِ المؤمنين لهم، دون أن يكتملَ التنبيه إلى سبب استحقاقهم هذا الجزاء العظيم وهو الإيمانُ والعملُ الصّالح.

بلاغةُ الإطنابِ بعطف الخاص على العام:

الإيمانُ وصالحُ العمل طريقُ بلوغِ الأمل

العطف في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من عطف الجمل، حيثُ عطفَ جملة: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على جملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالواو بقصد الجمع والتشريك بينهما، فالإيمان الكاملُ المحقّق لهذا الثواب الجزيل المنصوص عليه في الآية الكريمة، هو ما صاحبَه العملُ الصّالح فكمّله وصدّقه، وكان بمثابة الدليل عليه.

وقد يُحتجُّ بـ(الواو العاطفة) بينهما على أنَّ العملَ ليس داخلًا في حقيقة الإيمان، لكنّه مكمِّل له، وسببٌ في زيادته ورفعته، تأسيسًا على أنَّ العطف يقتضي المغايرة، ويُردُّ عليه بأنَّ العطفَ من عطف الخاصِّ على العام، فهو لونٌ من ألوان الإطناب.

وأيًّا ما كانَ فجمعُهما معًا بالعطف في جملة صلة الموصول إشعارٌ بلزومهما معًا في حصولِ التَّكريم، ونيلِ ما ذُكر من الثواب في الآية الكريمة، لكن يبقى الإيمانُ منجيًا من عذاب الخلود، والعملُ الصّالح مكمِّلًا له في نيل الثّواب والإكرام؛ لأنَّ الله ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: 48].

غرض تنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجمعها:

نُكِّر لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجُمِع لتفخيم شأنها وتعظيم أمرها، وتكثيرِ عددها، وإشعارًا بأنَّ ما فيها من مظاهر النَّعيم لا يردُ على خاطِر، ولا يبلغُ وصفَه واصفٌ.

التنكير والجمع يفيد التكثير والتعظيم

براعةُ اختيار وصف الجنّات بجريان الأنهار:

في اختيار وصف الجنّاتِ بجريان الأنهار في قوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانٌ لمظهرٍ من مظاهر النعيم، الَّتي تكون لأهل هذه الجنات، فلا يُشَك في أنّ النفوس تأنسُ وتتمتّعُ بما تلتقطُه العيون من منظرِ المياه، وهي تجري في الأنهار الَّتي تتخلّل الجناتِ والبساتينَ في الدنيا، لتنسابَ من تحتِ أشجارها وبينها، وهذا ما لا تختلفُ حوله الأذواقُ السليمةُ، فالناس في أوقات تنزُّههم يهرعون إلى الحدائق الَّتي هذه صفتها، وأهلُ الثراء يتَّخذون لأنفسهم في أفنية منازلهم الواسعةِ ما يُحاكون به الحدائقَ الكبرى في هذا، وهذا كلُّه في الدنيا وأحوالها الفانية، فكيف إذا كان ذلك كلُّه في جنات الآخرة وأنهارها الباقية؟! كما يوحي فعلُ الجريان ﴿تَجۡرِي﴾ بالتدفُّق الهادئ اللّطيف، فلا فورةَ غضب فيه، ولا شدّة موج منه، ولا حركةً عنيفةً تنتابُه.

محاكاةُ النَّظم للنَّفسِ البشريَّة تأثيرٌ بليغٌ بما يشفي اللّديغ

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ ابتدائيّةٌ دالَّةٌ على أنَّ منشأ جري الأنهار وابتداءَه من الجهة التحتيَّة، فهو تدفُّقٌ من أسفلِ الجنّات.

نكتةُ اختيارِ الظَّرفِ ﴿تَحۡتِهَا﴾:

الظّرفُ هنا قيدٌ كاشفٌ تشويقًا للسّامع بهذه الصّورة الجماليّة

عُلم في العادةِ أنَّ مياهَ الأنهار إنَّما تجري من الجهة التحتيَّة وليس من الجهة الفوقيّة، فما وجه النص عليه إذن في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؟ والجواب: أنَّ قوله تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ قيدٌ كاشفٌ، قُصِد منه زيادةُ إحضارِ حالة جريِ الأنهار، إذ الأنهار لا تجري من فوق، فهذا الوصفُ جيء به لتصوير الحالة للسّامع لقصد الترغيب، وهذا من مقاصد البلغاء، إذ ليس البليغُ يقتصرُ على مجرَّد الإفهام، وقريبٌ من هذا قولُ النّابغة يصف فرسَ الصّائد وكلابَه:

مِن حِسِّ أطلسَ تسعى تحتَهُ شِرَعٌ *** كأنَّ أحناكَها السُّفلى مآشيرُ[1]

نكتةُ إسناد الجريان للأنهار:

تصوير جريانِ الأنهارِ أنفسِها لكثرة مياهها

الأنهارُ بمعنى الشّقوق لا تجري وإنَّما تجري مياهُها، ومن ثمَّ فإنَّ في إسناد الجري للأنهار (مجازًا عقليًّا)، وسرُّه بيانُ كثرة المياه الَّتي في الأنهار، وكأنَّ الأنهار هي الَّتي تجري بها، وهذا توجيهٌ واضحٌ في شأنِ أنهار الدُّنيا، وأمّا الجنَّة فهي غيبٌ مَحضٌ، وما قيل إنَّما هو توجيهٌ لما يفهمُه الذِّهن البشريّ، ولمّا كان وصفُ الأنهار لتقريبِ الأمر للأذهان، فكذلك هذا التَّوجيه لتقريبِ تفسيره للأفهام.

بناء ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للمفعول:

الاختصار وبيان الهيئة تعميق لوصف النعيم

في بناء الفعل ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للمفعول تحقيقُ الاختصار بعدم ذكر الفاعل؛ للعناية بفعل التَّحلية، فإنَّ الفاعلَ على الحقيقة هو الله تعالى، لكن قد يأمرُ ملائكةً ليباشروه، فطوى النظمُ ذكر الفاعل عنايةً بالفعل ذاته، كما أنّ فيه إشعارًا بفخامة ما يُحلَّون به وتجدده بالزيادة والتنويع، كما أنَّ إسناد الفعل المجهول أفادَ أنّهم يجدون أنفسهم مُحلّين بتكوين الله تعالى[2]، من دون لبسٍ منهم أوْ توجُّه للُّبس.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 312.

وقوع الجملة حالًا أوْ نعتًا:

بيانُ هيئة الداخلين غاية الإكرام وتوصيف المدخول فيه ترغيب عظيم

الجملة الفعلية: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ إمّا حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لبيان هيئتِهم وتنعُّمِهم حالَ الدُّخول إلى الجنّات، فهم يدخلونَها وقد حُلّوا بالزّينة والأساور واللآلئ الجميلةِ الفاخرة، أو نعتٌ للجنّات قُصد منه تلذيذُ السّامعينَ بذلك النَّعيمِ المقيم، وما يشتملُ عليه من جمالٍ رائق وحُسنٍ بهيّ.

سرُّ ذكر حرفِ الظَّرفيَّة:

استعجالُ التَّمتّع بالمحرَّمات في الدُّنيا مانعٌ منها في الآخرة

اختار النَّظم الكريم استعمالَ حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ بالنصّ على الظرفية، حيثُ الضمير المجرور يعود إلى ﴿جَنَّٰتِ﴾؛ للنصّ على أنّ هذه التحلية، وهي من مظاهر النعيم الأخرويّ، لا مطمحَ إليها في دار الدنيا، وأنَّها ستكون في جنات النعيم في الآخرة، وأمّا الدنيا؛ فهي دار عملٍ واختبارٍ، وقد تكون معيشةُ الصّالحين من حيث قلّة الرّزق فيها قاسيةً، ولو قيل: (يحلون من أساور) بترك حرف الظرفية، لربَّما طمحتِ النُّفوسُ إليها في الدُّنيا، ولتعارَضَ ذلك مع حرمة التحلّي بالذهب على الرجال في الدنيا، ومن ثمَّ كان حرف الظرفيّة هنا حاسمًا ومانعًا لكلِّ احتمال آخر.

ولمّا كان الكفّار يتنعّمون به في الدنيا الفانية، ويَزهون به وقد حُرم منه المؤمنون بالتحريم التكليفي، جعله الله تعالى من مظاهر النعيم في الآخرة لعباده المؤمنين خالصًا.

نوع ﴿مِنْ﴾ ودلالتها البلاغية:

دفعُ أوهام الأفهامِ في تعيين المراد بتحلية الأساور

الحرف ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ يحتملُ الابتداء، ويكونُ المعنى أنّ ابتداء تنعُّمِهم أنْ يتحلّوا بالأساور، وهنالك حليٌّ أخرى أجملُ وأبهى، ويكون الاقتصار على ذكر الأساور الَّتي تُلبس باليد عادةً لوضوحِها على لابسيها وحامليها، كما تحتمل التبعيض، أي: بعض أساور؛ للدلالة على أنّ لبسَهم لا بدَّ أن يستلزم الجمال،

وذلك يحصلُ بالبعض دون أن يعمَّ أيديَهم كلَّها، ويحتملُ البيان؛ لما أنّ ذكر التحلية ممّا يُنبئ عن الحُلي المبهم، وقيل: زائدة[1] للتأكيد، والأوْلى تسميتُها مؤكِّدة تأدُّبًا مع النَّظم الكريم، ووجهُ التأكيد أنّه لمّا لم يُعهَد تحليةُ الرِّجال بالأساور كان الخبرُ عنهم بأنَّهم يُحلَّون أساور مُعرِّضًا للتردُّد في إرادة الحقيقة، فجيء بالمُؤكِّد لإفادة المعنى الحقيقيِّ[2]، لكنْ يُضعفُ هذا الوجه أنَّ (مِن) لا تُزادُ للتأكيد عند جمهور النحويين في الإثبات، ويترتّبُ على الحكم بزيادتها النحويَّة أنْ يُعرب ﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعولًا به للفعل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾.

وجه اختيار صيغة جمع ﴿أَسَاوِرَ﴾:

جـمـعُ الجـمـعِ مرادٌ به الأصناف والألوان والأنواع المتعدِّدة

الأساوِرُ: جَمْعُ أَسْوِرَة، والأَسْوِرَةُ: جَمْعُ سِوارٍ[3]، أي: أنَّ أساور هو جمع الجمع، وأُتي به بهذه الصيغة في الآية ﴿أَسَاوِرَ﴾ دون (أسورة) كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: 53]؛ للدّلالة على كثرة ما يُحلّون به من الأساور، حتى إنّه لم يُكتَفَ في التعبير عنها بالجمع، فعمدَ إلى جمْع الجمْع، ليدلَّ على هذه الكثرة الكاثرة، الدّالة على كثرة الأنواع والأصناف والألوان وأشكال الجواهر المصنوعة منها، كلُّ ذلك نعيمٌ يحرص عليه أهل الدُّنيا في الدُّنيا، خصَّ الله بها أهلَ طاعته في دار كرامته.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن ذَهَبٍ﴾:

تنوعُ الاحتمال وتعدُّد الإشارات والدلالات

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ابتدائية على معنى: أنشئت من ذهب[4]، والغرضُ من تحديدِ ابتداء تنعُّمهم بالأساور المصنوعةِ من الذَّهب الإشارةُ إلى حِلٍّ ما كان مُحرَّمًا على الرِّجال، وأمّا النِّساءُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 232.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 526، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 497.

فإنهنَّ يتحلّينَ بتلك الأساور المصنوعة من الذهب الَّتي لم يعتادوا لُبسها في الدنيا، فيحصل لهنَّ سرورٌ وهناءةٌ أعظم، أو أن ﴿مِن﴾ بيانيّةٌ، لما في ذكر الأساور من إبهام أيضًا يحتاج لتوضيح وكشف، إذ تحتملُ الأساور أن تكونَ من فضَّةٍ أوْ لؤلؤٍ[1].

توجيه القراءات في عطف ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ على ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾:

القراءات القرآنيَّة بحرٌ زخّار بالمعاني والدّلالات

في قوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قراءتان: الأولى: قراءة النصب ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ وبها قرأ نافع وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، والثانية: قراءة الخفض ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ وبها قرأ بقية العشرة[2].

وتوجيه قراءة النصب ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾: أنه عطف على موضع ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ بناءً على أنّ ﴿مِنْ﴾ زائدةٌ للتوكيدِ، فيكون المعنى أنهم يُحلَّون الأساورَ واللؤلؤ جميعًا، أوْ على تقدير فعلٍ محذوفٍ: (ويُؤتَون لؤلؤًا)، أوْ (ويَلبسونَ لؤلؤًا)[3]، وعلى هذا التوجيهِ يكون اللؤلؤ مُقابلًا للأساورِ الذهبية، فقد تكون الأساورُ الذهبيّة في الأيدي، وعلى رؤوسِهم تيجانُ اللؤلؤ مثلًا.

وتوجيهُ قراءة الجر ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾: أنه عطفٌ على لفظ ﴿أَسَاوِرَ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أو على ﴿ذَهَبٍ﴾ في قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ أي: يُحلّون أساورَ من ذهب ومن لؤلؤ، أي: منهما[4]، ويعطي التوجيه الأول مفادَ التوجيهِ السّابق من مقابلة اللؤلؤ للأساورِ الذهبيَّة، وأما التوجيهُ الثاني فكلٌّ من الذهب واللؤلؤ بيانٌ لتلك الأساور، فتكون الأساورُ مصنوعةً من ذهبٍ ولؤلؤٍ.

توجيه عطف الاسميَّة على الفعلية:

تخالفُ المتعاطفين شكلًا وتوافقُهما معنًى

(الواو) في الجملة الاسمية: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ عاطفةٌ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 418.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 326.
(3) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 543.
(4) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 268، والهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 544.

الجملة الفعلية: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، ولا مانع من ذلك، بل هو حسن[1] طالما توفّرت المناسبةُ الدّاعية إلى ذلك، ومَن يمنع إنَّما يمنع لسببٍ صناعيٍّ لا دليل عليه، فإنَّ لكلِّ جملةٍ معنًى بسببه اختيرت الاسميّةُ أوِ الفعليَّةُ.

نكتةُ التعبير بصيغة الجملة الاسمية في ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾:

العدول عن الفعلية يوقف على سرّ تقديم التحلية على اللّباس

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ جملةٌ اسميَّة معطوفةٌ على جملة فعليَّة، ولم يلتزم النَّظم الصيغة الفعلية، حيث لم يقل: (ويلبسون فيها حريرًا)؛ وليس ذلك من أجل الدلالة على أنَّ الحريرَ ثيابُهم المعتادة، أوْ لمجرَّد المحافظة على هيئة الفواصل، بل للإيذان بأن ثبوتَ اللِّباس لهم أمرٌ محقّقٌ غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤُهم عنه، فالبيان انصبَّ على ماهيَّة اللِّباس ونوعِه لا على كونه يُلبس أوْ لا، بخلاف الأساور واللّآلئ، فإنها ليست من اللَّوازم الضروريَّة، فجُعل بيانُ تحليتهم بها مقصودًا بالذات، ولعلَّ هذا هو الباعثَ على تقديم بيانِ التحلية على بيانِ حال اللِّباس[2]، وفيه ضعف لأنه لو كان القصد بيان التحلية لما ذكرت الأساور الذهبية واللآلئ كما ذكر الحرير في الملبوس.

وقيل: السرُّ في هذا هو أنّ الجُمْلَة الاسمية تفيد الدوام، وهم دائمونَ على لبس الثياب وليس أمرًا طارئًا في بعض الحالات، فتناسبَ ذلك مع دلالة الجملة الاسميَّة، وأما التحلّي بالأساور ففي وقت بعد وقت، وصيغة المُضارِع تفيدُ الاسْتمْرار التجدديَّ، ويتجدّدُ لبسُهم لها، ويحدثُ في حالاتٍ دونَ أُخرى، وذلك يتناسبُ مع دلالة الجملة الفعليَّة[3]، وهو الأرجح توجيهًا؛ إذ لا ينفكُّ أهلُ الجنة عن الملابس، وقد ينفكون عن لبس الحلي.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 233.

دلالةُ إضافة (لباس) إلى ضمير الجمع:

لـبـاسُ أهـل الجنَّة الحريرُ لا غير

إضافة (اللّباس) إلى ضمير الجمعِ في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ للاستغراق، أي: "جميع ما يلبسونه في الجنات حرير"[1]، بقيد أنْ تشتهيه أنفسُهم - ويبعُد ألا تشتهي الحريرَ العزيز نفسٌ - فإنه لا يكون في دار الجزاء إلا ما تشتهيه الأنفسُ، لقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: 31 - 32]، وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾ [الزخرف: 71].

فنُّ الاحتباك في الآية:

الحذف والذكر لبيان الأهمّ

في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ احتباكٌ، حيث حذفَ من كلٍّ جملةٍ ما ذُكر في الجملة الأخرى؛ فكأنَّه قيل: (يُحلَّونَ فيها وحِلْيتُهم أساورُ من ذهب ولؤلؤ، ولباسُهم فيها حرير يَلبسونَه)[2]، فاقتصر في جانب التحلية على الفعل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ للدلالة على أنّه الأهمُّ بالذكر من بيان الحِليةِ ونوعِها؛ إذ في التحلية نفسِها إكرامٌ، واقتصر في الثانية على بيان نوع الملبوس دون لبسه، إذ لا ينفكّون عنه، وليسَ في اللبس نفسه الإكرامُ، وإنَّما في نوعيَّة الملبوس.

براعة اختيار لفظ (لباس) دون (ثياب) كما جاء في شأنِ أهل النّار:

اللّباس ما يكون ملامِسًا للجسد مُتلبِّسًا به وتُخفيه الثياب الَّتي تكون فوقَه ظاهرةً

المراد بـ(اللِّباس) في الآية: ما يُخالط الجسد ويتلبَّس به ويلاصقُه، فتسترُ به العورة، وتُرتدى فوقه الثيابُ الَّتي تكون ظاهرةً للتجمُّل والتزيّي بها، وما دام هناك لباسٌ باطنيٌّ، فالثوب الخارجيُّ موجودٌ كذلك، وهي تقابل ما جاءَ في شأن الكافرين، حيث ذُكرتِ الثياب: ﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾، فلهم ثياب من نارٍ، ولا لباسَ دونها، وهذا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 526.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 233.

زيادة في توبيخهم وإهانتهم، والغرضُ من ذكر اللباس دون الثياب هنا الدلالةُ على كمال ترفُّههم في مقابلة كمالِ الإهانة لمقابليهم؛ إذ يكون الملاصقُ لأجسامهم الحريرَ النّاعم، وفي الجهة المقابلة لهم تكون الثياب الناريّة محيطةً بهم، ولا يبعد أنَّ ملابسهم الملاصقة من نار أيضًا، ويكون في الكلام احتباكٌ، حيث ذكر الثياب هنالك وحذف اللّباس، وذكر اللّباس هنا وحذفَ الثياب الَّتي فوقها، وجاءت آية أخرى تبيّن أنّهم يلبسون ثيابًا فوق اللّباس الحريريّ، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: 31].

غرضُ تقديم الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾:

قُدّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لإفادة القصر، إذ إنَّ لباس الحرير مقصور على كونه في الجنة، لا في الدنيا، والتَّنبيه على زيادة التنعم بها ورعايةِ الفواصل[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللِّباسُ والثِّياب:

اللّباس ما يكون ملامسًا للجسد مُتلبّسًا به وتخفيه الثيابُ الَّتي تكون فوقه ظاهرةً

المراد بـ(اللباس) ما يُخالط الجسدَ ويتلبس به ويلاصقُه، فتستر به العورة، كالإزار؛ فإنَّه يقال له: لباس[2] ويُرتَدى فوقه الثياب الَّتي تكون ظاهرةً للتجمُّل والتزيّي بها، ومعنى ذلك أن اللّباس هي الملابس الباطنة الَّتي تلاصقُ الجسد، والذي يطلق عليه في الاستعمال المعاصر: (الملابس الداخلية)، والثياب هي الَّتي تكون فوقها ظاهرةً، فيتجمّل بها المرء ويخالطُ بها الناس، ويلتقي عوامَّهم ووجهاءَهم ويمارسُ بها أعماله وأشغاله، ويذهبُ بها إلى دور العبادة كما أرشد القرآن إليها بقوله: ﴿*يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40.
(2) الراغب، المفردات: (أزر).

وفي تعبير القرآن هنا باللباس - وهو ما استتر - وكونه من حرير، إيماءٌ إلى أنَّ الثياب الظاهرة إنما تكون أكثر فخامةً وجمالًا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن هذه الثياب الظاهرة لأهل الجنّات، إنّما تكون من سندس وإستبرق كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾ [الإنسان: 21]، وهي لأهل العذاب إنما تكون من نار، لقوله سبحانه: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: 19].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»